مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 08 عدد: 04 السنة: 2019
ص: 10 - 26 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

اسْتِعَارَةُ النَّقْدِ المُعَاصِرِ للمَفَاهِيمِ اللِّسَانيَّةِ، محورا التَّرِكِيبِ والاسْتِبدَالِ نمَوذَجًا.

the contemporary criticism borrowings from linguistic concepts: case of syntagmatic and paradigmatic axis

مُحمَّد مزيلط *

Mohamed Mezilet

جَامِعةُ ابنُ خلدون/ تيارت/ الجزائر

Universityof Tiaret

تاريخ الإرسال: 29/11/ 2018	تاريخ القبول: 2019/06/24	تاريخ النشر : 2019/09/25

مُلخّص البحث

ثمَّة شِبْهُ إجماعٍ بين الباحثين على الأثَرِ العَمِيقِ الذي أَحْدَثَتْهُ اللِّسانيَّاتُ الحديثةُ في بناء القَاعِدةِ الابستمولوجيَّةِ للنَّظريَّاتِ المعَاصِرَة في النَّقد وتحليلِ الخطابِ. ولهذا الغرض تأخُذُ هذه الوَرَقةُ العلميَّةُ على عاتقها التَّفصيل في أَوْجُهِ التَّأثير اللِّساني في صياغَةِ المفاهيم النَّقديَّة المعاصِرَة، وذلك من خلال محوري: العلاقات الاستبداليَّة، والتَّركيبيَّة. اللّذين شكَّلا أُسُسَ نظريَّاتٍ ومناهجَ نقديَّةٍ مُعَاصِرةٍ على غرارِ الأُسلوبيَّة في بعض اتجاهاتها، أو حتّى السِّيميائيَّة مع " رولان بارث".

وتروم الوَرَقَةُ الإجابة عن الإشكاليَّة التَّاليَّة: إلى أيِّ حدٍّ استطاعت الثُنائيَّة المشارِ إليها سَابقًا إحداث تأثيرٍ في النَّقد المعاصِرِ؟ وكيف تمكَّنَ من استِعَارتها إلى مجالِهِ؟ وهل اعْتُمِدتْ كآليَّاتٍ إجرائيَّةٍ في مَنَاهِجِ النَّقدِ، أم قُدِّمَتْ كمُستَوياتٍ بَانِيَةٍ للنَّصِّ، عليها تترَكَّزُ مَدَارَاتُ التَّحليلِ والقِراءَة؟

الكلماتُ المفتاحيَّة: تركيبٌ؛ استبدال؛ بنيويَّةٌ؛ أسلوبيَّةٌ؛ استِعَارَةٌ.

Abstract:

There is a consensus among researchers on the profound impact of modern linguistics on the conception of the epistemological principles of modern theories in criticism and discourse analysis. the aim of this contribution is to explore aspects of the influence of linguistics on the conception of contemporary criticism notions by focusing on those of syntagmatic and paradigmatic axis that have formed the basis of contemporary criticism theories and methods, as some currents of stylistics or semiology of Barthe.

This contribution also aims to discuss this problematic: to what extent the two notions mentioned have influenced modern criticism? How could the criticism borrow and integrate them into its domain? Are they adopted as

* المؤلف المرسل: محمد مزيلط. mezilmed1@gmail.com

operational tools in critical methods? Or as levels structuring the text, on which orbit the analysis and reading?
Keywords: Syntagma, paradigm, structuralism, stylistics, borrowing.

توطِئةٌ:

تبوَّأت اللِّسانياتُ الحَدِيثةُ مكانةً مُتميِّزةً لدى مجموعةٍ من الحُقول المعرفيَّةِ كالأنثروبولوجيا، وعلم النَّفس، والسِّميائيَّات، والنَّقد الأدبيّ المعاصر. ولا يكادُ يخفى على أيِّ باحثٍ أهميَّة ثُنائيَّات "دي سوسور" F. de saussure، ولا حتَّى اللِّسانيات الخطابيَّة لـ: "بنفنيست" E. Benveniste، فضلاً عن اللِّسانيَّات الغلُوسيماتيَّة عند" لويس يلمسليف" L.hejlmslev، وبحوث"رومان ياكبسون" R.Jakobson في مجال الجوانب الصَّوتيَّةِ والوظيفيَّة للُّغةِ، حيثُ ساهمت تلك الجهودُ مُجْتَمِعَةً في تَشْكِيلِ القَاعِدَةِ الابستيمولوجيَّة لعَدَدٍ من الحُقُولِ والعلومِ المشَارِ إليها سالفًا، وانعكَسَ ذلك على مُستَوَياتها النَّظريَّةِ، والمنهجيَّةِ والاصطلاحيَّةِ. وتحتاجُ هذه المسألةُ إلى بيانٍ وتَفْصِيلٍ أكثر. وتَنْدَرِجُ هذه الورقَةُ العلميَّةُ في هذا الإطار بالذَّات، حيثُ تأخُذُ على عاتِقِهَا رَصْدَ العلاقَةِ الكامنة بين اللِّسانيَّاتِ الحديثة ونظريَّاتِ تحْلِيلِ الخطابِ، وذلك بالاسْتِنَادِ إلى مفهومين لسانيَّين توصَّل إليهما "سُوسير" في محاضراته.

وتهدِفُ الورقةُ البحثيَّةُ إلى مُناقشَةِ كيفيَّةِ إسهام النَّظريَّات اللِّسَانيَّة في بناء صَرْحِ نظريَّات تحليل الخطاب، والنَّظريَّات النَّقديَّة بوجهٍ خاصٍّ؛ وذلك بالتَّفْصِيلِ في أوجُهِ التَّأثير اللِّسانيِّ في صِياغَةِ المفاهيم النَّقديَّة المعاصرة، من خلال العلاقات الاستبداليَّة paradigmatique، والتَّركيبيَّة syntagmatique.

وتَرُومُ أيضًا الإجَابةَ عن إشكاليَّاتٍ مزدوجَةٍ، تهمُّ أوَّلا: بنية المفهومين، وثانيًا علاقتهما بالنَّقد الأدبيِّ. فهل المفهومين من بِدَعِ"سُوسير" وحده؛ أَمْ لهما ما يُطَابِقُهما، أو على الأقل ما يُشَاكِلُهما في الجُهود اللُّغويَّة التي سَبِقَتهُ؟ ثمَّ ما موقِعُهُما من النَّصِّ، باعتباره القُطب الذي يَرتكِزُ عليه مدارُ كلُّ تحليلٍ؟ وما المناهج النَّقْدِيَّة، أو النَّظريَّات الأكثر اتِّصالاً بهما؟ وعلى أيِّ نحوٍ وُظِّفَا في النَّقدِ الأدبيِّ المعاصر. تِلكُم أهمُّ الإشكاليَّات التي تَسْعَى المداخَلَةُ للبَحْثِ في مجاهيلها. وقَبلَ تقديم أيِّ إجَابةٍ لا بُدَّ من تخصِيصِ مباحث أوَّليَّةٍ لعرض الإطارِ العامِّ للبحث المتمثِّل في علاقة

اللِّسانيَّات بالنَّقدِ، دُونَ أن نَغْفَلَ بعد ذلك ماهية العلاقات التَّركِيبيَّة والاستبداليَّة في حَقْلِ الدِّراسَاتِ اللُّغويَّةِ.

أوَّلاً / أثرُ اللِّسانيَّات في النَّقدِ الأدبيِّ المُعاصر:

لا تَسْتقِيمُ إشكاليَّاتُ الورقَةِ العلميَّة على سُوقِهَا دُونَمَا مُرَاعاةٍ لإطارها الأَشْمَل، ويَكْمُنُ أَسَاسًا في تَعَالُقِ نظريَّاتِ النَّقْدِ المعاصِرِ بالنَّظريَّات اللِّسانيَّة، وتجدُرُ الإشَارةُ هنا إلى أنَّهُ أَخَذَ شَكْلَين مُتَناقِضَين: المطَابقةُ، والاخْتِلافُ. ففي المطَابقةِ حَاولتْ بَعْضُ الاتجاهات النَّقديَّةِ المعاصِرَةِ مُجَارَاةَ المنجَز اللِّسانيّ باستِعَارَةِ مفاهيمِهِ ومُصْطَلَحاتِهِ، وهو صُلْبُ البحثِ، أمَّا في الاختلاف سَعَى البعضُ الآخر منها سعيًا حثيثًا من أجل تَقْوِيضِ مُرتكزَاتِ اللِّسانيَّات الحديثة؛ لأنَّها لم تستطع «تجاوز سياق الميتافيزيقا، وهي في عجزها هذا أقرب فلسفة اللّغة القائمة بحكمة الحضور، فالعلم الذي موضوعه اللّغة يكرّس المنطق الميتافيزيقي ويرسّخه»[1]. وبهذا التَّوصِيفِ يمكنُ القولُ إنَّ النَّقدَ لم يجد مَنَاصًا من العَوْدةِ إلى اللِّسانيَّاتِ الحديثَةِ في كلتا الحالتين، سواء إثباتًا لها، بالمطابَقَةِ مع مَنَاهِجِها في مرحلة تُنْعَتُ لدى النُّقاد بمرحلة النَّص، أو نفيًا، وذلك بِتَقويضِ مركزيتها*، وذلك عن طريقِ وَضْعِ قِيَمٍ أُخرَى تُعلي من سُلْطَةِ القارئ والمتلقي، بعدما كان النَّصُّ، أو الأحرى اللغُةُ مَصْدرَ كُلِّ حقيقةٍ، وخاصَّة بعد تنامي موجة المابعديات.

إنَّ البحثَ لن يَسْلُكَ سَبِيلَ النَّفي؛ نظرًا لما يحملُهُ من تشعُّباتٍ؛ ثمَّ إنَّهُ بعيدٌ عن الإشكاليَّات المطرُوحَةِ، بل يحاولُ تَسْلِيطَ الضَّوءِ على المطابقةِ، والتي يمكنُ تبيُّنُ معالمها بدراسَةِ الوشائج الكامنة بين المنجز اللِّسانيِّ من جهةٍ، والنَّقديِّ من جهةٍ أخرى. والواقع أنَّ مَسْألة كهذه تَصْعُبُ الإحاطةُ بها في ورقةٍ علميَّةٍ موجزةٍ، ولكن حَسْبُنَا من ذلك الإشارة إلى أَبْرَزِ تَبِعَاتِ التَّقارُبِ النَّقديِّ اللِّساني، وتتمثَّلُ أساسًا في جُنوح النَّقدِ نحو العلميَّةِ، بعدما ظَلَّ يَرْزَحُ رَدحًا من الزَّمنِ تحت المِمَارَسةِ الانطباعيَّةِ، والتَّأَثُّرِيَّةِ.

إنَّ العِلمَ لا يأخذُ صِفَةَ العلميَّةِ مادام مُفتقرًا لثلاثةِ شُروطٍ رئيسَةٍ: موضوعٌ/ منهجٌ/ باحثٌ، وخاصَّة الأوَّل والثَّاني، فالعلمُ لابُدَّ أن يَسْتَقِلَّ بموضوعٍ خاصٍّ لا يُنَازِعُهُ فيه حقلٌ معرفيٌّ آخر. كما يقتضي أيضًا منهجًا، أو مناهج يُتَنَاولُ بواسطتِهَا الموضُوعُ، ويقِفُ وراء ذلك كلِّه باحثٌ علميٌّ. وبناءً على هذا التَّحديد يمكن القَولُ إنَّ اللِّسانيَّات الحَدِيثةَ مع "سوسير" خَطَتْ خُطْوَاتٍ نحو العلميَّةِ، وخاصَّةً على مستوى الموضوعِ والمنهجِ.

فعلى مستوى الموضُوع، عمل "سوسير" جاهدًا على تحديدِ موضوعِ اللِّسانيَّات، بعدما كانت تَعْتَوِزُ إلى موضوعٍ دقيقٍ تَخْتَصُّ بهِ، أو بتعبيرٍ آخر كان مُوزَّعًا بين عدَّة علومٍ، أو على حدِّ وصفِ "دي سوسير" نفسه «كأنه كومة مبهمة من خليط الأشياء التي لا صلة فيما بينها، وحين ننهج هذا النهج نفتح الباب أمام علوم عديدة، علم النفس، الأنثروبولوجيا، القواعد المعيارية، الفيلولوجيا، الخ – علوم نفصلها نحن عن الألسنية بشكل لا لبس فيه، ولكن بسبب من منهج خاطئ قد تطالب باللغة كأحد من مواضيعها»[2]، ولهذا عَدَّ "سوسير"«الموضوع الوحيد والحقيقيّ لعلمِ اللُّغة، هو اللُّغةُ لِذَاتِهَا ومن أَجْلِ ذَاتِهَا»[3]، ولذا تعامَلَ مع اللُّغة «على أساس أنّها منظومة من المستويات الصوتيّة والصّرفيّة والتركيبيّة والدلاليّة. وبذلك يبتعد دو سوسير عن التّعريفات التي تجعل من الوظيفة الأساس للغة تمثيلاً لبنية الفكر على نحو ما نجد في النحو الفلسفي وأعمال اللّغويّين المقارنين»[4]. ومن شَأْنِ الرَّبْطِ بين اللُّغة والفِكْرِ أن يَجُرَّها إلى متاهَاتٍ وإشكالاتٍ لا تخصُّها بِقَدْرِ ما تخصُّ العلم أو الحقل المعرفيّ الذي كانت موضُوعًا له، حيثُ تُدرسُ بمصطلحاته، ومناهِجِهِ، ومتى حقَّقَتْ استقلاليتها، وحدَّدَتْ موضُوعَهَا، وتفرَّدت به، كانت أقرب إلى العلميَّةِ.

ولقد سَارَ النَّقدُ المعاصِرُ في المنحى ذاتِهِ؛ أي تحديدِ الموضُوعِ، وخاصَّة مع الاتجاه البنيويِّ، حيثُ أدَّتْ الشَّكلانيَّةُ الرُّوسيَّةُ قَبْلَهُ دورًا لا يُسْتَهَانُ به في التَّمكِينِ للمُنْجَزِ اللِّسانيِّ في مَقُولاتها النَّقديَّةِ، دُونَ أن نَغْفَلَ أيضًا مفهوم الشِّعريَّةِ لدى "رومان ياكبسون"، ويُشِيرُ في هذا الصَّدد «إنَّ موضوع الشعريّة هو، قبل كل شيء، الإجابة عن السّؤال التّالي: ما الذي يجعل من رسالة أثرا فنّيا؟»[5]. وكلُّ هذه المفاهيم: اللُّغةُ، الشِّعريَّةُ، الأدبيَّةُ، تربطُها علاقةٌ وطيدةٌ بمفهوم النَّصِّ الذي شكَّلَ الموضوع الأَثِير لدى النَّقدِ البنيويِّ. فالنَّصُّ في مجمُوعِهِ لغةٌ في المقَامِ الأوَّلِ، وتَتَمَيَّزُ بخاصِّية الأدبيَّة التي تُمَيِّزُهُ عن اللُّغة اللاَّ أدبيَّة، ثمَّ إنَّه يسعى إلى تحقيقِ شِعريَّتِهِ في مُستوياتٍ مختلفةٍ: الجنس الذي ينتمي إليه، شِعْرِيَّةُ الرِّوايةِ، شِعْرِيَّةُ القصَّةِ...أو حتى من داخل الجنس المنتمي إليه، يُحَاولُ التّميُّزَ عن نُظرائِهِ من النُّصُوصِ الأُخرى. إنَّ هذه الصيَّرورة المصطلحيَّة من اللُّغة إلى النَّص لَتَعْكِسُ بحقٍ مدى الحُضُور الابستيمولوجي للِّسانيَّات في النَّقد.

هذا بإيجازٍ شديدٍ عن العلميَّةِ على مستوى الموضُوع؛ أمَّا على مُسْتَوى المنهج، فإن التَّتَبُعَ الحصيف يُظْهِرُ للباحثين أنَّ رِحْلَةَ البحثِ عن العلميَّةِ في مَنَاهِجِ النَّقدِ لم تبدأْ مع اللِّسانيَّات الحديثة؛ بل هي أقدم من ذلك، إذْ تعودُ للفلسفة الوضعيَّةِ، حيثُ تأثَّرت المناهجُ بمُنجَزَاتِ العُلوم

الطبيعيَّةِ، وبالدِّقة التي تميِّزُها، ومن ثمَّ اعتَنَقَتْ الفِكْرِ الوَضْعيَّ الذي يرى أنَّ «العلم لا يتألف من الظواهر بل يتركب من القوانين. ومعنى ذلك أنه لا يبحث عن العلة الأولى أو عن غايات الأشياء وجواهرها، بل عن العلاقات التي توجد بينها»[6].

فالعِلْمُ حسب التَّصوُّر الكُونتيِّ ينبغي لَهُ النَّأْي عن كلِّ أَشْكَالِ الحدسيَّات والتَّأمُّلاتِ الميتافيزيقيَّةِ في جواهر الظَّواهر، والتي تَكَرَّسَتْ بفعل الهيمنةِ اللاَّهوتيَّةِ على الفِكْرِ الإنسانيِّ، فجوهَرُ العِلْمِ يَتَلخَّصُ في البَحْثِ عن العلاقات الكامِنَةِ بين الظَّواهر. ومن هُنا عَمِلَ النَّقْدُ الأدبيُّ على إدراجِ النَّصِّ في بنيةٍ تَفْسِيريَّةٍ أشمل منه، كالمجتمعِ، أو التَّاريخِ، أو المؤلفِ. وعَمَلاً بهذه القاعدة المعرفيَّة لم تخرج المَناهِجُ النَّقديَّةُ المتأثِّرةُ بالفلسفة الوضعيَّةِ عن البحث في العلاقات بين الظَّاهرة الأدبيَّةِ ومُسبِّبَاتها، أو كانت سَبَبًا في وُجُودِ النَّصِّ الأدبيِّ، وتَنَاسَت أدَبيَّتَهُ، وحقيقتَهُ الجماليَّة.

والملاحَظُ أنَّ المِسَار الأوَّل صَوْبَ العلميَّة كان محفُوفًا بالمنزَلقَاتِ؛ نتيجَة للغُفْلِ الذي طَالَ النَّصَّ، ولذلك لم يَسْلَمْ من سِهَامِ النَّقد البنيويِّ. ومن هنا راهَنَ البنيويُّون على اللِّسانيَّاتِ السُّوسوريَّة؛ لأنَّها قدَّمتْ نموذجًا معرفيًّا متميِّزًا، يَصلُحُ لبناء تصوُّراتِهِم النَّظريَّة، والآليات الإجرائيَّة لمناهجهم النَّصِّيَّة. ثمَّ «إنَّ جزم سوسير بأنَّ حقيقة اللغة كامنة في ذاتها أكثر ما هي كامنة في تاريخها يعدّ إعلانا عن قطيعة معرفية سوف يتجاوز أثرها حدود العلوم اللغوية إلى مجال العلوم الإنسانية الأخرى، كيف لا ومنذئذٍ ستكفّ اللسانيات عن أن تكون تابعة للمعارف البشرية الموازية لها لتصبح تدريجيا متبوعة لها»[7]. فالمنهجُ الوَصْفِيُّ الذي فضَّلَهُ "دي سوسير" أثبت جدارته العلميَّة، وكفاءَتَهُ الإجرائيَّةِ، لا في حَقْلِ الدِّراساتِ اللُّغويَّة فحسب؛ بل وكذلك في بقيَّة العلوم التي اِسْتَعَارَتْهُ من حَقْلِ اللِّسانيَّاتِ.

ولعلَّ أبرز سمَةٍ حَمَلَهَا المِنْهَجُ، تَتَمثَّلُ في إعادةِ الاعتبارِ للظَّاهرَةِ المدرُوسَةِ، مهما كانت طبيعتها: لغةٌ، نصٌّ، مجتمعٌ... حيثُ تُصطَنعُ المحايثةُ سبيلاً للتَّحليلِ. بالتَّركيز على بُناها الدَّاخلية، والعلاقات النَّاظمة لها، وهذا مُجْمَلُ ما تعلَّق بالوجه الثَّاني من عِلمِيَّةِ الدِّراسات اللِّسانيَّة، التي شكَّلت سَنَدًا لنظريَّات النَّقْدِ وتحليلِ الخِطَابِ. هذا، وقد بقيت تفاصيل أُخرى بِشَأْنِ هذه المسألَةِ، كما تَجْدُرُ الإشارةُ أيضًا إلى إشكاليَّات أخرى تَتَعَلَّقُ بِفعلِ الاستعارةِ ذاتِهِ، لم يَسَعنا المجالُ إلى طرقِ بابه.

ثانيا/ العلاقات التَّركيبيَّة والاستبداليَّة من منظار اللّسانيَّات الحديثة:

لا يَسْتَقِيمُ التَّفْصِيلُ في عناصِرِ البحثِ دُونَ تخصيص وَقْفةٍ لبيان طبيعة العلاقات الاستبداليَّة والتركيبيَّة، وتجدرُ الإشَارةُ إلى تعدُّدِ التَّرجمات العربيَّة للتَّركيب والاستبدال، كالتَّأليف، النَّظم ، الحُضُور...، في مُقَابِلِ الاختيار، الانتقاء، الغياب... وتُخْتَزَلُ كلُّ تلك الاختيارات في محورين أساسيين: الأفقي: ويَشْمَلُ العلاقات التَّركيبيَّة، في حين يتفرَّدُ المحورُ العَمُوديُّ بالاستبداليَّةِ. ووجْهُ الصُّعوبة لا يكمُنُ في الإحاطةِ بتعدُّدِ المصطلحاتِ المقابلةِ للمصطلحين بِقَدْرِ ما يَكْمُنُ في ديناميتهما، فَفَضْلُ التَّنبيهِ إليهما عَائدٌ إلى "سوسير"، لكن المصطلحين وُظِّفَا مع دراساتٍ لسانيَّةٍ لاحقةٍ، على نحوٍ يتناغم وتَوجُهاتِها، فنظرة الوظيفيَّة تختلفُ عن التَّوزيعيَّة. وبمُقَارنَةٍ بسيطةٍ بين "سوسير" و"ياكبسون" يمكنُ الوُقُوفُ على هذه الحقيقةِ العلميَّة.

ويُوضِّحُ "سوسير" منطق التَّركيب، حيثُ «يتأسّسُ بمقتضى سلسلة من الكلمات التي تنتظم على نحو خطّي، وتنتفي معه إمكانية التلفظ بكلمتين في وقت واحد، فالتركيب إذن يتكون دائما من وحدتين متتاليتين فأكثر مثل: إعادة قراءة، ضد الجميع، الحياة الإنسانية، الله طيِّب»[8]. يتبيَّن لنا من هذا التَّحديد لماهية التَّركيب الخصائص الآتية:

علاقات الحضور: فالتَّركيب يَتَعَلَّقُ بوحداتٍ لسانيةٍ حاضرةٍ.

التَّتابع:أو الخطية، فالعلاقةُ بين تلك الوحدات تكون على نحوٍ خطّيٍّ أُفقيٍّ.

المحدوديَّة: إنَّ المركب الواحد لا يمكنه توظيف عددٍ لا مُتَنَاهٍ من العناصر[9].

هذا بإيجازٍ عن العلاقات التَّركيبيَّة. أمَّا عن الاستبداليَّة* فتقوم على خصائص الاختِلاف مع سابقتها، وهو ما أكَّده "دي سوسير" في مُستَهل حديثه عنهُمَا، بحيث يَتولَّدُ عن كلٍّ مِنهُمَا قِيم مغايرة لنظيرتها، فإذا كان التَّركيب يقوم على الائتلافِ بين الوحدات اللِّسانيَّة؛ فإنَّ الاستبدالَ يَقُومُ على الإفرادِ، كما لا تُشْتَرَطُ فيه الخطيَّة ما دام مُفردًا، إذ لا يوجدُ تسلسلٌ، ولا تتابعٌ، وأهم من ذلك خاصِّية الغيَّاب التي تحدِّدُ هويَّتَهُ، فالوحدة اللِّسانيَّة تُدركُ في ضوء تقابُلها مع عناصر متقاربة معها على مستويات عدَّة.

وقدَّم "سوسير" (التَّعليم) كمثالٍ عن العلاقات الاستبداليَّةِ في اللُّغة «فمثلا: المصفوفة (enseignons) (enseigner) (enseignement) تستندُ إلى جذع مشتركٍ، والمصفوفة (armement) (changement) (enseignement) تستند إلى لاحقة مشتركة، والمصفوفة

(enseignement) (instruction) (apprentissage) (éducation) تستند إلى ((تشابه المداليل وحده)) »[10]. فاستحضار الوحدة: (تعليم) في الواقع، يُقَابلُها الذِهنُ بوحدات غائبةٍ تتشابَهُ معها على مستوى الجذر اللُّغوي المشترك، كما تُبيِّنهُ المصفوفة الأولى، أو على مستوى الصِّيغةِ الصَّرفيَّة مثلما هو الشَّأنُ مع المصفُوفَة الثَّانية، أو على مُستوى المعنى المشترك كما توضِّحهُ لنا المصْفُوفةُ الثَّالثةُ.

لقد أبانَ العرضُ السَّابقُ عن الآليات التي تَحْكُمُ كيفِيةَ اشتغالِ اللُّغة، وقد بَسَطَ"دي سوسير" ذلك كلَّه في سياق حديثه عن الطَّابعِ الآني للوصْفِ اللِّساني، غير أنَّ تلك الأفكار لم تبق حَبِيسَةَ صاحِبِها؛ بل عَمِلَ بَعْضُ اللِّسانيِّين على توظيفها، على غرار" رومان ياكبسون". وهُنا نتوقَّفُ عند الحركة الأولى للمصطلح داخل الحقل المعرفي الواحد؛ أي اللِّسانيَّات. وتُطرحُ معها علاماتُ استفهامٍ حول مجال استعماله، فهل بقي في إطارِ اللِّسانيَّاتِ أم تخطَّاهُ إلى مجالاتٍ أخرى؟

يتَّضِحُ لنا من القِرَاءَةِ الأوليَّة أنَّ "ياكبسون" لم يُبْقِ على العلاقات التَّركيبيَّة والاستبداليَّة في إطار البحث اللُّغويّ النَّظريِّ ضِمْنَ اللِّسانيَّات الآنية، كما صَنَعَ سَلَفَهُ، بل وظَّفَهُمَا في إطار اللِّسانيَّات النَّفسيَّة la psycholinguistique التي تُعالج اضطرابات الكلام، وتَحْدُرُ الإشَارَةُ في البداية إلى استعمال "ياكبسون" إلى ثُنائيَّاتٍ أُخرى تُقابلُ التَّركيبيَّة والاستبداليَّة على غِرارِ: الخارجيَّة والداخلية، وتارة أُخرى يُوظِّفُ: علاقات التَّشابه والتَّجاور.

وتجدرُ الإشَارَةُ إلى أنَّ هذه النَّظرة العَمَلِيَّة للمُصطلحين لدى "ياكبسون" كانت أقربَ إلى التَّوظيف النَّقدي لهما؛ ويتَّضِحُ ذلك جليًّا في تَفْصِيلِهِ لعلاقاتِ الاختيار والتَّركيب. فالعلاقاتُ الدَّاخليَّةُ والخارجيَّةُ على حدِّ وَصْفِهِ هي المسؤُولةُ عن الضُّعفِ اللُّغويِّ لدى المرضى، ففي مستوى الاختيار، قال إنَّ «المصابين بالحُبْسةِ تكونُ عندَهُم العلاقةُ الدَّاخِليةُ مُضْطَّربةً (اضطِّراب التماثُلِ) تكونُ لهم صُعوباتٌ في تَرتيبِ الرُّمُوز تبعًا لِتَماثُلها. ويتِّمُ الجمع فيما بين وحدتين، وتتِّمُ الاستِعَاضَةُ بوحدةٍ بدلَ الأُخرَى ولكن دُونَ الاستنادِ لقاعدةِ التَّشابُهِ بينهما، أو التَّناقُضِ، لقد فقدوا القُدرةَ عَلَى إنشَاءِ مُعَادَلةٍ بين الكَلمتَين المتَنَاظرتَين (المتناقضتين)، أو بين الكلمتين المتشَابهتَينِ دلاليًّا(المترادفتين)، أو بين الكلمة والعِبارةِ الأكثر وُضُوحًا»[11]. يُفْهَمُ من سياق هذا الطرح أنَّ المريض بالحُبْسَة أثناءَ محاولتِهِ للتَّعبير، لا يملكُ القُدرةَ على التَّميِّزِ بين الكلمة التي يُريدُ استخدامَهَا

والكلمات التي تَخْطُرُ عليه، وإن حَصَلَ وامتلك مَجمُوعَةً من الكلمَاتِ لا يستطيعُ اختيارَ الكلمَة الأَكْثَر انْسجَامًا مع سياق التَّعبير، وإن غَابت الأُولى والثَّانية، لا يجدُ العبارة التي تقوم مقامَ الكَلمَةِ التي يبحثُ عنها. فالمشْكلةُ تكمُنُ أسَاسًا في اختيارِ الكلمة المنسَجِمَةِ مع سياقِ النَّصِّ.

وتختلفُ المشْكِلةُ على المستوى التَّركيب لدى المرضى، أو كما يُسمِّيهِ «النَّوع الآخر للحُبسةِ، هو مُتَضادٌّ مع الأعراضِ المذكُورةِ أعلاهُ، فالمريضُ لا تكونُ له القُدْرَةُ على الرَّبط، عَلَى الرَّغمِ أنَّ العمليات القائمة على التَّشابُهِ سليمةٌ لَدَيه، وهكذا يَفْقِدُ القُدرَةَ على تقديم مُقترحاتٍ، ويتفَكَّكُ السَّياق»[12].فالمشكلة هنا لا تكمُنُ في الاختيارِ، فالرَّصِيدُ المعْجَمِيُّ كافٍ، والمريضُ لا يَعدِمُ الوحدات اللِّسانيَّة للتَّعبير عمَّا في نفسه، غير أنَّهُ لا يُحْسِنُ خَلْقَ الاتّساقِ بينها؛ وبالتَّالي يَعْجِزُ عن تكوين العِبَاراتِ المناسِبَةِ.

وفي البحث ذاتِهِ، رَبَطَ العلاقتين المشَارِ إليهما بالاسْتِعَارةِ والكنايةِ «فالاستعارة تتأسَّسُ بالمشابهة، والكناية تتأسَّسُ بالتَّجاور»[13]. وعَجْزُ المريضِ عن الأُسلُوبِ الاستِعَاريِّ والكِنَائيِّ مَرَدُّهُ إلى عَدَمِ القُدْرَةِ على اختيار المشبَّهِ به، وعَدَمِ التَّمكُّنِ من تَرْكيبِ معنًى يجاورُ التَّركيبَ المراد تَكْنيتَهُ. واستطاع "ياكبسون" من تخطي حقل الاضطرابات اللُّغويَّة إلى حقل الدِّراساتِ الأدبيَّة، عن طريقِ تعميمِ النَّموذج اللُّغويّ، ويُشِيرُ"روبرت شولز" في هذا الصَّدد: «إنَّ جاكبسون يقترح بحماسة أننا في حاجة إلى شعرية كل من الشعر والنثر وهي شعرية تلازم وظيفة الاستعارة والكناية في كل المستويات وكل أنواع الحديث»[14].

فالتَّعْمِيمُ هنا يُقَرِّبُنَا من مجالِ الأدبِ، وكَتحْصِيلٍ حاصلٍ، من مجال النَّقْدِ أيضًا، هذا إذا أخذنا بعينِ الاعتبارِ تَلاَزُمَ الأدب مع النَّقد، كما يُسَاهِمُ في ربط صِلاَتٍ مَتِينةٍ بين الدِّراسَات اللِّسَانيةِ واللُّغويَّة من جهةٍ والنَّقديَّة من جهةٍ ثانيةٍ. ولا تَفُوتُنَا الإشَارةُ إلى تَعْمِيمٍ آخر عَرَضَهُ "ياكبسون" في الوظيفة الشِّعريَّة للُّغةِ، وهي إحدى الوظائف السِّت للُّغةِ. حيثُ تُهيمِنُ في الخطاب الأدبيِّ، وتتراجعُ في الخطابات غير الأدبيَّة، والجدير بالذِّكر أنَّها تتحقَّقُ بالاختيار والتَّركيب معًا «وتسقط الوظيفة الشّعرية مبدأ التماثل لمحور الاختيار على محور التأليف»[15]. وقد أخذ البحثُ في شعريَّة النُّصوص حيِّزًا معتبرًا في بعض اتجاهات النَّقد المعاصر.

يتَّضِحُ لنا ممَّا تقدَّم بيانه أنَّ"رومان ياكبسون" بَذَلَ جُهدًا لا يُستَهَانُ به في سَبِيلِ إحداث نقلة بالمصطلحين، من مجال اللِّسانيّات إلى مجال النَّقد الأدبيِّ، وبالموازاة مع ذلك من اللُّغةِ إلى

النَّصِّ الأدبيِّ، وهو الموضوع الأثير للنَّقد الأدبيِّ، وقد حَفَلَتْ دراستُهُ بمصطلحاتٍ مُتعلقةٍ بالنَّصِّ من قبيل: السِّياق، والانسجام، والدّلالة، والبنية...وهو ما أَغْرَى النُّقادَ على تلقي المصطلحَيْنِ، واستثمروهما في مجال النَّقدِ تنظيرًا وتطبيقًا.

ثالثًا/التَّوظيفُ النَّقديُّ للعَلاقاتِ التَّركيبيَّةِ والاستبداليَّةِ:

أشرنا سابقًا إلى فضلِ "رومان ياكبسون" في التَّمكين للمُصطلحين في مجال النَّقدِ، فَجُهدُهُ يُعَدُّ همزةَ وَصْلٍ بين حَقلي اللِّسانيَّات والنَّقدِ. ويبقى التَّساؤُلُ الآن مُتَعلِّقًا بطبيعة التَّوظيفِ النَّقديِّ لهما، فعلى أيِّ نحوٍ سَارَ؟ وبأيِّ الاتجاهات النَّقديَّة ارتبطَ؟ وهل كان للجُهُودِ النَّقديَّةِ العربيَّة نصيبٌ في ذلك؟ تلكم أهمُّ الإشكالات التي يرمي هذا المبحثُ للإجابة عنها، قَصْدَ بيان ما مدى إسهام النَّظريَّات اللِّسانيَّة في تكوين القاعدة الابستيمولوجيَّة للنَّظريَّات النَّقديَّة المعاصرة. ويمكنُ رَصْدُ هذه الثُّنائية في النَّقدِ الغربيِّ، كما يُمْكِنُنَا رَصْدُها في النَّقد العربي على نحوٍ سنأتي للتفْصِيلِ فيه بعد حينٍ، كما أنَّ تأثيرها اِمْتَدَّ لأكْثَرِ من نظريَّة نَقْديَّةٍ.

1/التّأصيل للتَّركيب والاستِبدالِ:

إنَّ العَلاقَةَ بين نظريَّات اللُّغة ونظريَّاتِ النَّقْدِ لم تبدأْ مع اللِّسانيَّات الغربيَّةِ الحديثةِ، بل إنَّ جُذُورَهَا تَعُودُ إلى التُّراث اللُّغوي العربيِّ في علاقَتِهِ بنظيره النَّقديِّ. هذا الطرح الذي عملت بعض الجهود النَّقديَّة العربيَّة على تَرْسِيخِهِ في إطارِ ما يُصطَلَحُ عليهِ بالتَّأصيلِ. والتأْصِيلُ كما يحدِّدُهُ "طه عبد الرحمن" هو« تحقيق الصّلة بالأصول، فكذلك التأثيل تحقيق الصلة بالأثول، والأثول هي الأصول»[16]. ولا شكَّ أن هذه الرغبة في ردِّ هذه الثُّنائية إلى أصول عربيَّة قديمة تغذيها نزعة ردّ الاعتبار لتراثنا ومسائل أخرى لا يمكن التَّفصيل فيها؛ لأنَّها ليست من صميم أهداف البحث.

ويحضُرُنَا هنا مُؤَلَف "المرايا المقعَّرة" لـ:"عبد العزيز حمودة"، وعَمِلَ فيه على البَرْهَنَةِ على أنَّ هذين المفهومين تَدَاوَلَهُمَا البلاغيُّون القُدامى ، وخاصَّة "عبد القاهر الجرجاني" الذي يقول في شأنِهِ «أرى أن إنجازه، بعكس ما يرى الجابري كان أكبر من مجرد شرح فكرة عبد الجبار وتحليلها وإغنائها بالأمثلة، صحيح أن الجرجاني لم يبدأ من فراغ كامل أو جزئي، لكنه استطاع أن يطور انجازات البلاغيين السابقين على مدى قرنين إلى نظرية متكاملة للنظم تقوم على تأكيد شبكة لعلاقات بين العلامات اللغوية أفقيا ورأسيا. وبهذا يكون الجرجاني، كما قال محمد مندور، قد قدم نظرية للغة العربية تماشي ما وصل إليه علم اللِّسان الحديث»[17].

ويبدو أنَّ ما حَمَلَ "حمودة" على هذا الجُهْدِ هو تجَاهُلُ بعض النُّقادِ الحداثيِّين- على حدِّ وصفه- لقَصَبِ سَبْقِ النَّظريَّةِ اللُّغويَّة العربيَّةِ لنظيرتها الغربيَّة لبعض المفاهيمِ الحديثَةِ التي لها أُصُولٌ في التُّراث العربيِّ، لكن نُقَّادًا كعبد الله الغذّامي، و"كمال أبو ديب" آثروا تلقيها عن "ياكبسون". بدلاً من التَّأصيلِ لها من التُّراثِ العربيِّ، وفوَّتُوا بذلك إثباتِ مدى غِنَى التُّراثِ بالأطروحات السَّابقة لزمانها. ولا نُريدُ الاسترْسَالَ في هذه المسألَةِ أكثر؛ لأنَّ من شأنِ ذلك أن يَصْرِفَنا عن الإشكاليَّة الرئيسة للبحثِ، وسنُوضِّحُ فيما تبقى من صفحات البحثِ استِعَارةَ النَّقدِ المعاصِرِ للمفهومين.

رابعًا/ التَّركيبُ والاستِبدَالُ في الدِّراساتِ الأسلُوبيَّةِ:

إنَّ المتتبعَ لعلاقة نظريَّاتِ تحليل الخطاب بالنَّظريَّات اللِّسَانيَّة لَتَسْتَوقِفُهُ عُرَى الصِّلات بينهما، وخاصَّة النَّصِّيَّة منها: كالبنيويَّةِ والأسلوبيَّةِ؛ لأنَّها اِسْتَوحَتْ أُسُسَها «من اللّسانيَّات محاكية كلَّ ما يتعلّق باللغة وفي مقدمة ذلك النحو. ولذا تسعى إلى بناء نحو نصّي يكاد يماثل النحو الخاص باللّغة»[18]. ولعلَّ مردَّ ذلك عائدٌ أساسًا إلى النجَاحَات التي حقَّقَتها اللِّسانيَّاتُ على مستوى الموضوعِ والمنهجِ كما أَسْلَفنَا.

وكان لمصطلحي العلاقات التَّركيبيَّة والاستبداليَّة حظٌّ وافرٌ من الاهتمامِ لدى الدِّراسات الأسلوبيَّة، على المستويين: النَّظريّ والتَّطبيقيّ على حدٍّ سواء، وذلك ما سَنَعْمَلُ على بيانه في المبحث اللاَّحقِ.

ويبدو أنَّ هذه الثُّنائية أخذَتْ مكانَةً خاصَّةً في حقل الأسلوبيَّات نظرًا لاعتباراتٍ عدِيدَةٍ، لعلَّ من أبرزها تمخض الأسلوبيَّة من رَحِمِ اللِّسانيات، ويكفي تَرَبُّعُ "شارل بالي"bally Charles على رأس أسلوبيَّة التَّعبير للتَّدْلِيل على هذه الحَقِيقَةِ، فـ"شارل بالي" تلميذُ "سوسير"، من الرُّواد الذين أَرْسَوا مُصْطلحَ الأسلوبيَّة، ورسَّخُوهُ تنظيرًا وتَطْبيقًا، ولعلَّ هذا يُغْنِي عن بسط الدَّلائل الأُخرى لِدَيْنِ اللِّسانيات على الأسلوبيَّة. وبالتَّالي لا غَرَابَةَ أن نَجِدَ المفاهيمَ اللِّسانيَّة راسِخَةً في الاتجاهاتِ الأسلوبيَّة.

1/ التَّركيبُ والاستِبدالُ بوصفهما محدِّدين للقِيمَةِ الأسلوبيَّةِ:

يجمع هذا المبحث بين حَقْلَي اللِّسانيَّات والأسلوبيَّة، فالمدْرَسَةُ السُّوسُورِيَّة لم تُقْدِم «على دراسة الأسلوب الفردي، فقد ظهر لها أنَّه فعل حر، منعزل، متفرد بلا حدود، وفار من الملاحظة

والتحليل والتصنيف، فاتجهت على العكس من ذلك إلى دراسة الأساليب الجماعية، والوقائع اللغوية، ذات العلاقة بالفئات الاجتماعية »[19]. غير أنَّ هذا التَّوجُّه السُّوسُورِيّ لا يُفْسِدُ للوُّد قضيَّةً، فالتَّحليلُ الأسلوبيُّ مدينٌ لِلْفَضْلِ للِّسانيَّات في توجُّهِهِ الإجرائيِّ، والمنهجيِّ بوجهٍ عامٍّ.

فالأسلوبيَّةُ وَجَدَتْ في مُحَاضَراتِ "سُوسِير" قاعدةً ابستيمولوجيَّة لها «ولعلّ أهم مبدأ أصولي يستند إليه حقل الأسلوبية يرتكز أساسا على ثنائية تكاملية هي من مواضعات التفكير اللساني، وقد أحكم استغلالها علميا سوسير، وتتمثل في تفكيك مفهوم الظاهرة اللسانيّة إلى واقعتين، أو لنقل لظاهرتين وجوديتين: ظاهرة اللغة، وظاهرة العبارة (langue-parole) »[20]، أي اللُّغة والكلام. لقد اختار"سوسير" اللُّغةَ كموضوعٍ للِّسانيَّات؛ نظرًا لثباتها، وتوجَّهَ توجُّهًا يغلُبُ عليه الطابعُ النَّظريُّ، حيثُ اهتم بدراسَةِ القوانين الدَّخليَّة للُّغة، بيد أنَّ الأسلوبيَّة اِنْصَبَّ اهتمامُها على تحقُّقات اللُّغةِ؛ أي على عُنْصُرِ الكلام، الذي يتجسَّدُ في رسالةٍ، أو نَصٍّ، أو خِطابٍ، وحينما نقُولُ النَّصَّ، نَقْصِدُ بذلكَ أُسلوبَ النَّصِّ.

لقد جَعَلَ التَّحليلُ الأسلوبيُّ النَّصَّ موضُوعَهُ الأثير، فالأسلُوبيَّةُ علمٌ موضُوعُهُ أُسلُوبُ النَّصِّ. لكن من أيِّ زاويةٍ قاربت مَوضُوعَهَا؟ فهل يمكنُ اختِزَالُ التَّحليل الأسلوبيِّ في مجرَّد وصفٍ للأسلوب ، أو إحصاءٍ لبنياتِهِ؟

إنَّ اختزالاً كهذا سَيُفْرِغُ الأسلوبيَّةَ من مُحتَواهَا ومَوضُوعِهَا، وذلك ما سَجَّلَهُ "بيير جيرو" على أُسْلُوبيَّة التَّعْبيرِ لدى"شارل بالي"، وقد اِسْتَدْرَكَ كلٌّ من "رومان ياكبسون"، و"مكائيل ريفاتير" ما فات سَلَفَهُمَا، فَوضَعَا الرِّسالة أو النَّصَ موضِعَ اهتمام بالغٍ، وعليه، فإنَّ التَّحليل الأسلوبيّ يَتَجاوزُ الوَصفَ الصِّرفَ إلى البَحْثِ عن القِيمَةِ الأسلوبيَّة، والقِيمَةُ في هذا السِّياق لا تعني الأحكام القِيمِيَّة؛ لأنَّها بِكُلِّ بساطةٍ، نَأَتْ بنفسِهَا عن معياريَّةِ البلاغَةِ، فالأُسلُوبيَّةُ «تعزف عن إرسال الأحكام التقيميَّة بالمدح أو التهجين، ولا تسعى إلى غاية تعليمية البتة، فالبلاغة تحكم بمقتضى أنماط مسبقة وتصنيفات جاهزة بينما تحكم الأسلوبية بقيودِ منهجِ العلوم الوصفية، البلاغة ترمي إلى خلقِ الإبداع بوصاياها التقييميَّة بينما تسعى الأسلوبية إلى تعليل الظاهرة الإبداعيَّة بعد أن يتقرر وجُودُها»[21].فالقيمةُ هنا أقربُ من مصطلح الأدبيَّة، والشِّعريَّة.

ولأَجْلِ بُلُوغِ هذا المقْصَدِ، وَضَعَ المنظِّرون الأُسلُوبيُّون مُحدِّداتٍ للأُسْلُوبِ بالارْتِكَانِ إلى ثُنائية (التَّركيب/ الاستبدال)، ولذلك فإنَّ «الأسلوب يمكن تعريفه بأنه اختيار choice أو انتقاء

selection يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين ويدل هذا الاختيار أو الانتقاء على إيثار المنشئ وتفضيله لهذه السمات على سمات أخرى بديلة، ومجموعة الاختيارات الخاصة بمنشئ معين هي التي تشكل أسلوبه الذي يمتاز به عن غيره من المنشئين»[22].

وميّز"سعد مصلوح" في بحثِهِ بين نمطين من الاختيار: اختيار نفعي مقامي pragmatic selection، وهو أَبْعَدُ نسبيًّا عن تحديد ماهيةِ الأسلوبِ؛ لأنَّه يخضَعُ إلى نوعٍ من الحَتْمِيَّةِ لدى المُنْشِئ، فالتعبيرُ عن رَغْبَةٍ، أو شعورٍ، أو بيانُ حَقِيقَةٍ يتطلَّبُ أوَّلاً حَامِلاً لُغويًّا لذلك. أمَّا النَّمطُ الثَّاني والذي يَصْطَلِحُ عليه"مصلوح" بـ: الانتقاء النحوي grammatical selection [23]، هو أَلْصَقُ بحقِيقَةِ الأسلوبِ يقفُ فيه المنشئُ أمام مجموعةٍ من الخيارات تُؤدِّي المعنى المتوخى، لكن بدرجاتٍ متفاوتة من حيث القيمة الأسلوبيَّة في الدَّلالة التي يريدها. فيقول: اشتعل الرأس شيبًا. أو عندي بتَّار. فقد ترك مجموعة من الأوصاف الخاصَّة بالسَّيف، واختار واحدًا منها، فَقِيمَةُ الكلمة هنا تتحدَّد بمُقَابلتِهَا بغيرها من الكلمات كما يقول "سوسير"، لأنَّها الأبْلَغُ في الإحاطة بالوَاقِعَةِ الأسلوبيَّة، وكأنَّنا إزاء سُلَّمٍ، تتفاضَلُ درجاتُهُ في القِيمَةِ الأسلوبيَّة.

لكن يبقى تحديدُ الأسلوبِ بالاختيار بلا جَدْوى، وأقربُ إلى العَبثِ إذا ما تمَّ دُونَ المحدِّد الثَّانِي: التَّركيب، فالاختِيَارُ بهذا التَّصوُّر عَمَليةٌ محايثةٌ للتَّركيبِ، إذْ لا يمكنُ الفَصْلُ في قِيمَةِ الألفاظ إلاَّ في ظلِّ تجاوُرِها مع غيرها من الألفاظ، وانْسَجَمَتْ مع السِّياق الواردة فيه، ولذلك يقول"عبد القاهر الجرجاني": «اعلم أنّ من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه والحسن كالأجزاء من الصِّبغ تتلاحق وينضّم بعضها إلى بعض، حتى تكثر في العين، فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه، ولا تقضي له بالحِذْقِ والأستاذية، وسعة الذَرع وشدّة المَنَّةِ حتى تستوفي القطعةَ »[24]. يتَّضحُ من هذا المقتطف أنَّ نظريَّةَ النَّظمِ الجرجانيَّةِ قد سبقت النَّظريات النَّقدَّيةَ المعاصرة إلى تأكيد الحقيقة العلميَّة؛ أي ضرورة تَضَافُر التَّركيب مع الاختيارِ.

وتَأْسِيسًا على ما تَقَدَّمَ «استغل هذا التصور المزدوج (الاختيار والتأليف) في الدراسة الأسلوبية، فنشأ تعريف للأسلوب بأنه إسقاط محور الاختيار على محور التأليف، وذلك لأن مقومات الاختيار في الأدب خاصة، تذعن لمقتضيات العلاقات الركنية، فيمكن أن يقال في (إذا جاء نصر الله والفتح ...): إن الأداة (إذا) اختيرت على حساب(إن، عندما، لما، حينما...) وكذلك الفعل (جاء) قد اختير ضمن (قدم، حل، أطل، هب، أتى...) إلا أنّ في (جاء) انسجام

مع (إذا) ليس لغيره من الأفعال بما أنه يحتوي الهمزة الختامية التي هي في إذا ابتداءً، وينبني على فتحة طويلة في مقطعه الأول وهي الموجودة في المقطع الثاني من إذا »[25].

فـ"عبد السَّلام المسديُّ" في مثاله هذا جَعَلَ إسْقَاطَ المحورِ العمُوديّ على المحور الأفقيّ يُراعِي أَكْثرَ من مستوى: دلاليٌّ، وآخر صوتيّ يتعلَّق بالإيقاع الدَّاخلي. وقد لفت انتباهنا إلى الإجَابَةِ عن تساؤلٍ طرحناه في مُفتتح الورقة، ويتعلَّقُ بطبيعة المفهومين اللِّسانيَّين الذين يتأسَّسُ عليهما البَحْثُ ما إن كانا من قَبِيلِ: الآليَّات الإجرائيَّة، أم المستويات التَّحليليَّة، والواقع أنَّهُما للثَّانيةِ أقربُ، وتكونُ اللِّسانيَّات بذلك، قد أسدت خِدْمةً جَلِيلةً لنظريَّات تحليل الخطاب لأنَّها وضعت بين يديها مستوياتٍ تعدُّ بمثابة مداخلَ تحليليَّة للنُّصُوصِ.

خامسًا/ التَّركيبُ والاستبدالُ في مجال السِّيميائيَّات:

لم يقتصر تأثيرُ الثُّنائية على مجال الأُسلوبيَّة فحسب؛ بل وامتدَّ أيضًا إلى مجال السِّيميائيات، وخاصَّة لدى "رومان ياكبسون"، وقد أشرنا إليه سابقًا، إضافة إلى "أندري مارتني"، و"رولان بارث". فمارتني يرى أنَّ العلامات تتمَفْصَلُ وفق «نمطين مختلفين من العلاقات الموجودة في القول énoncé المسماة مركبية والقابلة للملاحظة بشكل مباشر. ولتعيين هذه العلاقات مصطلح التباينات contrastes. وهناك، من جهة ثانية، العلاقات التي نتصورها بين الوحدات التي يمكن أن تظهر في نفس السياق والتي تلغي بعضها البعض في هذا السياق على الأقل. وتسمى هذه العلاقات بالاستبدالية – paradigmatiques ويعيِّنها مارتنيه بالتعارضات التي يمكن أن تظهر في نفس السياقات»[26]. سَنَعُودُ لاحقًا لتفصيل ما جاء في كلام "مارتني" في سياق آخر؛ نظرًا للتَقَارُب الحاصل لوظيفة تلك العَلاقاتِ في بنية الخطابِ وبين ما سيأتي ذكرُهُ.

وسَيَتَرَكَّزُ الاهتمامُ على "رولان بارث"؛ لأنَّ جُهُودَهُ في مجال السِّيميائيَّات أكثرُ أهميَّةً من سابقيه. ويُعْتبرُ أحد «أقطاب النقد السيميولوجي منذ نشر كتابه بعنوان: الأساطير mythologies الذي عمل على شهرته، بصوت لم يسبق له مثيل وأسلوب خاص يميزه هذا بعد قراءات مؤلفات بورس peirce يلمسليف hjelmlev وسوسير f.de.saussure فعلا كان أول من أنجز تركيبا رائعا للمنظرين الثلاثة ووضع نظرية سيميولوجية تتجاوز اللسانيات النسقية والمبنينة»[27]. وعَمِلَ على تَوْسِيعِ حُدُود السَّيميائيَّات بالاشتغال على الأنْسَاقِ غير اللُّغويَّة،

بالاعتماد على جملة من المفاهيمِ والمصطلحَات اللِّسانيَّة، ومن جُمْلتها الثُّنائية التي يَتَمَحْوَرُ حولها بحثُنَا.

أشار"دانيال تشاندلر"إلى أنَّ محور التَّركيب يمثِّلُ الجانب الشَّكْلِي للعَلامَةِ السِّيميائيَّة، أو بنيتها السَّطحية، في حين أنَّ الاستِبدَالَ يجسِّدُ المضمُونَ، أو بتعبيرٍ آخر بنيتها العميقة؛ ولهذا ركَّزَ السِّيميائيُّون على مسألة اختيار دوالٍ على المستوى العمودي دُوْنَ غيرها[28]. لكن لا يُفْهَمُ من ذلك أنَّ يَقْتَصِرَ على محورِ الاختيارِ؛ فقد يكونُ بِلا معنًى إذا كان بِمَعزَلٍ عن التَّركيب، وهذا يقترِبُ كثِيرًا من جَوهَرِ نظريَّة النَّظم الجرجانِيَّة، وبالتَّالي فإنَّ « التحليل السيميائي لنص ما، أو عيّنة بحث، لا بدّ أن يتناول المنظومة ككلّ، وأنه لا يمكن دراسة أحد البعديْن–التركيبي والاستبدالي– في نص بمعزل عن الآخر يستلزم وصف أيّ منظومة سيميائيّة تحديد جميع المجموعات الاستبداليّة التي تدخل في المنظومة، وضروب المزج المحتملة لكلّ مجموعة مع الأخرى في تراكيب حسنة التشكيل»[29]. لأنَّ العلامَةَ في التَّحليل لا تَقْبَلُ التَّمَفصُلَ؛ لأنَّ التَّدليلَ لا يحصُلُ بأحَدِ طَرَفيهَا دُونَ الآخرِ.

وتجدُر الإشَارةُ إلى أنَّ توظيفَ الثُّنَائِيَّةِ شَمَلَتْ أيضًا فنَّ السِّينما، ودراسة مقاطع الأفلام، ويبقى الأهم في هذا المبحث عرض التَّجربة البارثيَّة في هذه المسألة، فقد طبَّقها على اللِّباس، فقد نَظَرَ إليه على أساس أنَّهُ نسقٌ سيميائيٌّ، «فالعناصر الاستبداليَّة هي التي لا يمكن ارتداؤها في الوقت نفسه على الجزء الواحد من الجسد (كالقبّعة والجوارب والحذاء)، والبعد التركيبي) هو تجاور عناصر مختلفة في الوقت نفسه للحصول على كسوة كاملة من القبعة إلى الحذاء»[30].

ويتبيَّنُ لنا ممّا تقدَّم أن حُضُورَ كُلَّ قطعةٍ في نسق اللِّباس تمثِّلُ مَدْخَلاً مُتَمَيِّزًا للقراءاتِ السِّيميائيَّة، ولنا في الثَّقافات المختلفة ولا سيما العربيَّة خيرُ مثالٍ، فعادَةً ما يُصِيْبُ نَسَقَ اللِّباسِ تحولات جذريَّة؛ نتيجة الغزو الثَّقافي، واستبداد قِيَمِ العولمةِ، لكن يُحْتَفَظُ بقطعَةٍ واحدةٍ، قد لا تبدو مُنسَجِمَةً في مع التَّركيب، أو النَّسقِ الجديدِ الواردة فيه، الأمر الذي يدعو إلى الكثير من التَّأويلات والقِرَاءات الكاشِفة لبقاء تلك القطعَةِ بالذَّاتِ.

ويتَّضحُ لنا مرةً أخرى الأهمية البالغة التي يكتسيها الاستبدالُ والتَّركيبُ في مجال تحليل الخطاب بمختلف تشكيلاته، لسانيٌّ، غيرُ لسانيٍّ، ويمثِّلان من جهةٍ أخرى مُستويين تحليليّين،

بخلاف الاعتقاد، أو الخلط السَّائد في بَعْضِ الدِّراساتِ النَّقديَّةِ العربيَّةِ، إذ تَعتَبِرُهُمَا آليتين إجرائيتين تُستَعمَلانِ في التَّحليلِ.

خاتمةٌ

وفي الأخير، وبعد تتبُّعنا لهذه الجزئية الدَّقيقة خلصنا إلى جُمْلَةٍ من النتائج أهمُّها: إنَّ الصِّلة بين النَّظريات اللّغويَّة ونظيرتها النَّقدية وَثِيقَةٌ جدًّا، حيثُ شكَّلت الأُولى أرضيَّةً ابستمولوجيَّةً رصينة للثَّانيَّةِ، واستطاع النَّقدُ بِفَضْلِ المنجَزِ اللّساني المعاصِرِ النأيَ بِنَفْسِهِ عَمَّا كان يتخَبطُ فيه من انطباعيَّةٍ، وبُعْدٍ عن الجوهر الأدبيِّ للنُّصُوصِ، والبحث في عِلَلِ وُجُودِهَا بدلاً من الغَوْصِ في جماليَّاتها، وتأمُّل شعريَّتها،

ساهمت محاضرات "دي سوسير" دورًا كبيرًا في إحداث هذه النّقلة في النَّقد على مستوى الموضوعِ والمنهجِ. لكن عن طريق الوسطاء والجهود اللِّسَانيَّة التي جاءت بَعْدَهُ، ونخصُّ بالذِّكْرِ "رومان ياكبسون" الذي كان له الفَضْلُ في نَقْلِ ثنائية الاستبدال والتَّركيب من الإطار النَّظريِّ اللُّغويِّ الصِّرف إلى رحاب النَّصِّ الواسعة، ولعلَّ من أكثر النَّظريات استثمَارًا لها الأسلوبيَّة، التي تَحَدَّدَ موضوعها في الاشتغالِ على إسقاط محور الاختيارِ على محور التَّأليفِ، ولقد سَبَقَ التُّراثُ البلاغيُّ العربيُّ إلى هذه الثنائية مع نظريَّة النَّظم الجرجانيَّة، التي تمكن صاحِبُهَا من الاستفَادةِ من الجهود السَّابقةِ له من أجل وَضْعِ نظريَّتِهِ على النَّحْوِ الأكْمَلِ. دُونَ أن نَغْفَلَ أيضًا أَثَرَهَا في النَّظريَّة السيميائيَّة، حيث وُظِّفت في أكثر من نَسَقٍ: اللِّباس، الفيلم... وتوصلنا أيضًا إلى أنَّ تلك الثُّنائيَّةِ تتوارى وراءها مستوياتٌ ومداخل لتحليل النَّص الأدبيِّ، أو إنَّ قُطبيها يمثِّلان مدخلاً مهمًّا لتحليل الخطاب بمختلف تشكيلاته. اللِّسانيَّة وغير اللِّسانيَّة.

هوامش:

[1] سامي الغابري: تفكِيكُ الميتافيزيقا وبناء الإيتيقا في فلسفة جاك دريدا، دار الخليج، عمَّان، الأردن، 2017، ص44.

* حاول "جاك دريدا" تفكيك مركزيَّةَ اللُّوغوس الذي يَمْنَحُ امتيازًا للعَقْلِ، وللوعي الذَّاتيِّ، وهو ما تَكَرَّسَ في تاريخِ الفَلْسَفَةِ الغربيَّةِ من "أفلاطون" إلى "سوسير" مُرورًا بديكارت و"كانط". ونَعتَ ذلك بميتافيزيقا الحضُور؛ أي حضورُ الوعيِ، والذَّات المالكة للعالم والحَقيقَةِ، ويحْصُلُ ذلك باللُّغَةِ، فبها نُنَمْذِجُ العَالَمَ، ونَستَحضِرُهُ، ونَمتَلِكُهُ، واللُّغةُ المقصُودةُ هنا تكْمُنُ في جانبها الصَّوتي لا المكتُوبِ، ومن ثمَّةَ راهن "دريدا" على الكِتَابَةِ التي تُتيحُ للمتلقي

سُلطةً أكبر، وتتمتَّعُ الدَّوالُ بحريَّةٍ أرحب في الإحَالةِ على مَدْلُولاتِهَا. وكان لهذا المِسْتجَدِ الأثرُ الأكبر في تجاوُزِ النَّقد الأدبي للمعطى اللِّسانيِّ الممثَّلِ في مرحلة البنيويَّةِ بالانعطافة نحو مرحلةٍ جديدةٍ: القارئ، أو ما يُعْرَفُ بنظريّاتِ ما بعد البنيويَّةِ.

[2] فردينان دو سوسور: موضوع الألسنية، مجلة الفكر العربي، ع 8- 9، مركز الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، بيروت، لبنان، 1979، ص104.

[3] Ferdinand de Saussure: Cours De Linguistique Général, publié par charles bailly et albert séchehay,éditions payot et rivages,paris 1997, p 317.

[4] مصطفى غلفان: في اللّسانيَّات العامة، تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1،2010، ص 211.

[5] رومان ياكبسون:قضايا الشِّعرية، تر:محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال، الدَّار البيضاء، المغرب،ط1، 1988، ص24.

[6] ليفي بريل: فلسفة أوجيست كونت تر:محمود قاسم والسيد محمود بدوي، المكتبة الانجلو مصرية، 1952، القاهرة، ص13.

[7] عبد السلام المسدي: مباحث تأسيسيّة في اللّسانيّات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص 176.

[8] Ferdinand de Saussure: Cours De Linguistique Général, p170.

[9] ينظر: ماري آن بافو وجورج إليا رفاتي: النَّظريَّات اللّسانيَّة الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعيَّة، تر: محمد الراضي، المنظمة العربيَّة للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص137.

*إنَّ العائد لمحاضرات دي سوسير لا يجد مصطلح الاستبدال، بل استعمل مصطلح: associatifs، ويبدو أنَّ هذا الاختيار المصطلحي جاء لاحقاً، أي بعد التَّلقيّ النَّقديّ لمحاضراته، وتجدُرُ الإشارةُ أيضًا لاختلاف التَّرجمات العربيَّةِ للمُصْطلح، فترجمة صالح القرمادي ورفيقيه في كتابهم: دروس في اللسانيات العامة اختاروا مصطلح: التَّرابطيَّة، في حين فضَّل يوئيل يوسف عزيز كتابه: علم اللُّغة العام مصطلح: الإيحائية، وبين التَّرابطيَّة والإيحائيَّة بونٌ معنويٌّ، كما يوجدُ بينهما وبين ما استقرَّت عليه البحوثُ اللاَّحقةُ بونٌ آخر، فالترّابطيَّة أقربُ إلى التَّركيبيَّةِ، وقد يكونُ اختيارُ مصطلح التَّشاركيَّة أكثر قُربًا من الدّلالة التي توخاها دي سوسير لهذا المصطلح، خاصَّة إذا أخذنا علمًا بأنَّ الوحدات اللِّسانيَّة في العلاقات الاستبداليَّة تشترك مع أخرى في المستويات المذكورة أعلاه.

[10] ماري آن بافو وجورج إلياس رفاتي: النَّظريَّات اللّسانيَّة الكبرى من النَّحو المقارن إلى الذرائعيَّة ، ص136-137.

[11] ROMAN Jakobson : langage enfantin et aphasie, traduit par jean-paul boons et radmila zygouris, les éditions de minuit, paris, 1969, p112.

[12] ROMAN Jakobson : langage enfantin et aphasie, p114.

[13] Ibid, p113.

[14] روبرت شولز: البنيوية في الأدب، تر:حنا عبود، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، سوريا،ط7، 1977، ص34.

[15] رومان ياكبسون: قضايا الشّعرية، تر: محمّد الولي ومبارك حنون، دار توبقال، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، 1988، ص33.

[16] طه عبد الرحمن:فقه الفلسفة 2، القولُ الفلسفي،كتابُ المفهوم والتأثيل، المركز الثّقافي العربيّ، الدّار البيضاء المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص129.

[17]عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة، نحو نظرية نقديةٍ عربيّةٍ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،2001، ص235.

[18] عبد الرحيم جيران: سرابُ النّظرية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص45.

[19] بيير جيرو: الأسلوبية، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط2، 1994، ص44.

[20] عبد السّلام المسديّ: الأسلوبيّة والأسلوب، الدارُ العربيّة للكتاب، تونس، ط3، 1977، ص38.

[21] عبد السّلام المسديّ: الأسلوبيّة والأسلوب، ص53.

[22] سعد مصلوح: الأسلوب، دراسة لغوية إحصائيّة، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1992، ص37-38.

[23] ينظر: المرجع نفسه، ص39.

[24] عبد القاهر الجرجاني: دلائلُ الإعجازِ، شرح وتعليق محمد التونجي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص74.

[25]عبد السّلام المسديّ: الأسلوبيّة والأسلوب، ص141.

[26]مبارك حنون: مدخل إلى لسانيات سوسير، دار توبقال، الدّار البيضاء، المغرب، ط1،1987، ص167-168.

[27] برنار توسان: ما هي السيميولوجية، تر: محمّد نظيف، أفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط2، 2000، ص44.

[28] ينظر:دانيال تشاندلِر: أسس السيميائيّة ، تر: طلال وهبة، مراجعة: ميشال زكريا، المنظمة العربيّة للتّرجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص157.

[29] دانيال تشاندلِر: أسس السيميائيّة، ص156.

[30] المرجع نفسه، ص155.